المجلة الجزائرية للعلوم – سلسلة ب
آداب وعلوم الإنسانية
ISSN : 2661-7064
http://univ-eltarf.dz/fr/

الثورة الجزائرية في شعر مفدي زكريا

La révolution algérienne dans la poésie de Moufdi Zakaria

الدكتورة : ركي نجاة- جامعة قالمة

ملخص:

سنحاول في هذا المقال دراسة نظرة مفدي زكريا للثورة الجزائرية من خلال ملحمته الشعرية "إلياذة الجزائر" التي عبر فيها الشاعر عن عمق الثورة الجزائرية وعظمتها من خلال تلك الكلمات والعبارات المنتقاة بعناية والمستوحاة من القرآن الكريم والتراث العربي، كما نعرض مكونات لغته الشعرية من دقة وجزالة وقوة جرسه الموسيقي المحرك لنفسية القارئ، وألفاظه المعبرة عن المعنى المراد إيصاله للشعب، بالإضافة إلى دراسة أسلوبه المتمثل في الأصالة والمباشرة وطابع الحماسة، كما تميز أسلوبه بالقوة والسلاسة، وقام باستحضار شخصيات دينية وتراثية، وتوظيفه الصور الشعرية بعناية فائقة تنم عن شخصية الشاعر الإبداعية والثورية.

الكلمات المفتاحية: مفدي زكريا- الثورة الجزائرية- الإلياذة- اللغة- الأسلوب.

Résumé:

Dans cet article, nous essaierons d'étudier le point de vue de Mufdi Zakaria sur la révolution algérienne à travers son épopée poétique « Iliade d'Algérie » dans laquelle le poète a exprimé la profondeur et la grandeur de la révolution algérienne à travers ces mots et phrases soigneusement sélectionnés inspirés du Saint Coran. "un héritage arabe, alors que nous présentons les composantes de son langage poétique de justesse, de générosité et de force. Sa cloche musicale qui anime la psyché du lecteur, et ses mots exprimant le sens à transmettre au peuple, en plus d'étudier son style d'originalité, de franchise et de nature enthousiaste, et son style se distinguait par la force et la douceur, et il évoquait des personnalités religieuses et patrimoniales, et utilisait avec beaucoup de soin des images poétiques qui reflètent la personnalité créative et révolutionnaire du poète.

Mots clés : Moufdi Zakaria - la révolution algérienne - l'Iliade - la langue - le style.

إن الدارس في إلياذة الجزائر لمفدي زكريا «يرى أن المنبع و المصدر الأساسي الذي كان يستقي منه أفكاره و تعابيره و ألفاظه من القرآن الكريم في إنتاجه الشعري طوال مسيرته الشعرية التي استمرت حوالي نصف قرن، من أغرز الروافد صبا في شعره و من أجزلها عطاء و سخاء بالرفات الخيالية و التصويرية و قد ظهر ذلك جليا واضحا في بنية قصائده لغة و تصويرا و موسيقى و صاحبته هذه الميزة في كل مراحله الشعرية (المرحلة الإيحائية و النضالية و المرحلة الثورية و مرحلة ما بعد الاستقلال)و يحتل مكانه سامية مقدسة في نفسه القرآن الكريم و يمثل في نفسه نهاية السمو الذي لا نهاية بعده"[1].

ومن خلال هذا نجده يوظف اللفظ القرآني بين مستويين هما:

المستوى الأول: توظيف اللفظ القرآني معنى ولفظا

في هذه الحالة يقتبس الشاعر من القرآن لرسم صورة أو تعبير عن فكرة بل يعمد إلى الآيات أو الآيات المستوحاة لإعطاء شعره مضامين متنوعة وهذا ما نجده في قوله:

وفي قدس جناتنا الناضرة وجوه إلى ربها ناظرة[2]

فالبيت مأخوذا من قوله تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة". [3] وفي قوله:

ويحفظ ميزاب لوح الجلال فيصبح ميزاب في اللوح حرفا [4]

فأخذ الشاعر الكلمة و معناها في قوله تعالى: "بلْ هُو قُرْآنٌ مجيد في لوح محفوظ" [5] يقول :

تقدس واديك منبع عزي ومسقط رأسي وإلهام حسي [6]

فالبيت مقتبس من قوله تعالى: "إني أنا ربّك فأخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى"[7]

وأخرجت الأرض أثقالها فطار بها العلم فوق الخيال [8]

فصدر البيت مأخوذ من قوله تعالى: "وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها"

---

[1] - محمد ناصر، مفدى زكريا شاعر النضال والثورة، جمعية التراث، العطف، غرداية، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط02، 1969، ص55.

[2] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.ص 46.

[3] - سورة القيامة، الآيتان 22،23.

[4] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص34.

[5] - سورة البروج، الآيتان،21،22.

[6] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص35.

[7] - سورة طه، الآية 11.

[8] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص36.

المستوى الثاني: توظيف اللفظ القرآني دون مضمونه

هنا يستخدم مفدي زكريا اللفظ القرآني في غير معناه القرآني ويأتي لها بمعنى آخر مثل قوله في جمال طبيعة الجزائر:

وسبح الله ما في السنوات والأرض ملء شفائف شفا[1]

مأخوذة من قوله تعالى: "سبح لله ما في السَموات والأرض"[2] وقوله أيضا:

وتمت بها كلمات الإله التي وقعت باسمها الواقعة [3]

لقد اقتبس الشاعر لفظ البيت من الآية القرآنية: «إذا وقعت الواقعة ليست لوقعتها كاذبة"[4]، و في موقع آخر يقول:

ولم ترضى بالفحل من قومها فهامت بمن .... ما رمى إذ رمى؟ [5]

مأخوذة من قوله تعالى:" وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " [6]

نلحظ في النماذج طغيان النص القرآني بلفظه ومعناه فقد تملك خيال الشاعر وهذا الاستنجاد بالآيات القرآنية الكريمة يدل على الحالة النفسية المتألمة المعذبة التي يعيشها مفدى زكريا مستمدين من آياته البليغة الفريدة العبارة والأفكار.

ومن مكونات اللغة كذلك:

الدقة:

"فنعني بها أن الشاعر يختار الكلمة المناسبة للموقف المناسب، وكما قال ابن جنى:(مصاقبة الألفاظ لمصاقبة المعاني) سعيا الى تطابق اللفظ والمعنى " [7] وذلك في قوله:

تأذن ربك ليلة قدر وألقى الستار على ألف شهر
وقاله له الشعب: أمرك ربي وقال له الرب أمرك أمري
ودان الصاص فرنسا العجوز بما اجترحت من خداع ومكر
ولعلع صوت الرصاص يدوي فعاف اليراع خرافات حبري
وتأبى المدافع صوغ الكلا م،إذا لم يكن من شواظ و جمر[8]

[1] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص34.
[2] - سورة الحديد، الآية1.
[3] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص83.
[4] - سورة الواقعة، الآية1،2.
[5] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص105.
[6] - سورة الأنفال، الآية 14.
[7] - حواس بري، المقاييس البلاغية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002، ص336.

ونلاحظ من خلال هذه الأبيات لجوء الشاعر إلى هذا التوظيف في المواقف العظيمة و الأحداث الجسام التي يتخيل لنا التاريخ يتوقف لحظتها إجلالا و روعة، ومن هذه اللحظات لحظة إطلاق أول رصاصة في ليلة الفاتح أول نوفمبر سنة 1954،لنضع حدا للجاهلية التي استمرت قرن و ثلث القرن، هذه الليلة التي كانت بزوغ لفجر الحرية فقد شهدت ميلاد الثورة التحريرية المضفرة، ونظرا لعظمتها و جلال شأنها بحيث لم يضاهيها مثل في مخيلة الشاعر، إلا ليلة القدر المباركة تلك ليلة الأرض، تلك الليلة التي هي خير من ألف شهر، شهدت تغيير مجرى تاريخ البشرية من العبودية إلى الحرية و من الظلام إلى نور الإسلام ،و ما تحمله من دلالات تعبر عن مرحلة التغيير الايجابي و الخلاص المنتظر كما يصف المجاهدين الذين ناضلوا من أجل وطنهم بالصحابة المقربين .

وعن دقة اختياره للألفاظ يقف الشاعر أمام هذه الأبيات وقفة المندهش المنبهر بروعة هذه الطبيعة وجمالها الأخاذ يبعث فيها الحركة، لأن اللفظة هي التي تحدد شخصية الشاعر وأفكاره، كما تعبر عن حقيقة مشاعر وصدق أحاسيسه وذلك في قوله:

سل الورد يحمل أنفاسها لحيدر مثل الحظوظ البواكر
وأبيار تزهو بقديسها رفائيل يخفي انسلال الجآدر
تباركه أم إفريقيا على صلوات العذاري السواحر
ويحتار بلكور في أمرها فتضحك منه العيون الفواتر
وفي القصبة امتد ليل السهارى ونهر المجرة نشوان ساهر
وفي ساحة الشهداء تعالى مآذن تجلو عيون البصائر [1]

ومع هذا فإن مفدي زكريا قلما يصف عواطفه اتجاه هذه المناظر الطبيعية بالأفعال (الفعل الماضي والفعل المضارع والأمر) فالبقية باهرة بمنارها تحمل أنفاسها "لحيدرة والأبيار " تزهو بقدسيها، الذي يخفي تحت ستار الجاذر ذلك "أم إفريقيا" ويحتار بكلور "في أمر هذه القدسية التي تبارك الخطيئة، فتضحك من سذاجة، وكل هذا بفضل جوهرة الخيال و الإبداع لدى الشاعر.

الجرس الموسيقي:

"ومن خواص لغة مفدي زكريا أنها ذات جرس موسيقي يعطي الكلمة مدلولها من خلال التكرار الذي يتعمده الشاعر لحروف أو كلمات بعينها تساعد على توليد المعنى من خلال ما تحدثه من جرس موسيقي بتواليها وتتابعها[2]، بل هي في تنوع وتزايد مع النص والموسيقى لفظا ومعنى.

فقد كرر الشاعر حرف القاف المقلقة في قوله:

وفي باب واديك أعمق ذكرى أعيش بأحلامها الزرق دهرا
بها ذاب قلبي، كذوب الرصاص فأوقد قلبي وشعبي جمرا[3]

---

[8] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص69.

[1] -المصدر نفسه، ص23.

[2] - حواس بري، المرجع السابق، ص341.

كما كرر حرف السين أربع مرات في هذا البيت للتأكيد على الحالة النفسية المتألمة كون التكرار يؤدي وظيفة تعبيرية واضحة في قوله:

كأن لخميس وخمسين نجوى لست وخمسين يوم اجتمعنا [1]

ومثل تكرار الكلمات التي أحدث جرسا موسيقيا في قوله:

وكيف يقوم بنيانه وتقويم أخلاقهما ماستطاعا؟؟

وكيف يصون الأصالة نشء وقد ساوموه عليها فباعا؟؟

وكيف ينير الطريق شباب وقد طمس الرجس فيه الشعاعا؟

وكيف يداوي المريض صحيحا وفي قلبه مرض السل شاعا؟ [2]

كل ما رأيناه من شواهد تؤكد على أن مفدي استطاع أن يشيع الأجواء التي أراد التعبير عنها عن طريق الألفاظ ذات الجرس الموسيقي بحسه المرهف كما تؤكد على دلالة النغم والذوق وإيحاء صوت الكلمات وإعطائها لونها المعنوي في جملة التصوير بالشعر.

قوة اللفظ في قوة المعنى:

ذلك ما نلاحظه في مثل هذه المواقف التعبيرية والتي أشاد من خلالها بشجاعة الثوار حيث يقول:

تبارك شعب تحدى العنادا فصام، وأضرب سبعا شدادا

وآنف أن يستسيغ الحياة تجرعه ذلة واضطهادا

وأن يهجر النوم يلقى المنايا ويبلوا الليالي الطوال جلادا. [3]

ويصور وحشية المستعمر في قوله:

سكيكدة الثائرين أعيدي علينا فضائح باغ الحقود

أغسطس لم ينسها ويذكرها ألف ألف شهيد

وخمس وخمسون في الذكريات جلال يهدهد صدر الوجود

وعطر للمذابح في ساحها نوافح تلهم سفر الخلود

وتحكي لهذا الورى قصة مضرجة عن جهاد الأسود [4]

ومن ألفاظ التعاون والتراحم والاتحاد التي تناولت الشعوب العربية في قوله:

فيا مغربا مازجته الدما وأجمع في الصرصر العاتية

و زكاه أطلسنا في القرو ن،فرحنا نادين بوحدانيه

دعوا المغرب الوحدوي يقرر ويرفض مصائرنا الباقيه

---

[3] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص25.

[1] - المصدر نفسه، ص71.

[2] - المصدر نفسه، إلياذة الجزائر، ص97.

[3] - المصدر نفسه، ص77.

[4] -مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص72.

من خلال هذه الأبيات نلاحظ أن هذه الألفاظ تساعد الملتقى على إدراكها اعتمادا على الذوق والمعرفة واستعمال التشبيهات والمجازات والزخارف البديعية وذلك لقوة فخامتها ومعانيها كما أن قدرة الشاعر الفنية جعلته يغوص في أعماق المتلقي النفسية وتثير فيه الإحساس و المشاعر بخطورة الثورة من جهة، والدفاع عنها من جهة أخرى ذلك من خلال ضرب الأمثلة من بطولات التاريخ الإسلامي عبر غزوات الرسول-صلى الله عليه و سلم – و أصحابه.

ثانيا: الأسلوب

الأسلوب في اللغة "يقال للسطر من النخيل أسلوب، و كل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب الطريق و الوجه و المذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء، والأسلوب الطريق تأخذ فيه، والأسلوب بالضم الفن : يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه".[1]

أما في الاصطلاح فهو الذي وحده يجعل للشاعر أو الكاتب صوتا لا صدى، صوتا ما يميزه عن بقية الأصوات التي نسمعها في الساحة الأدبية.

لأن الأسلوب يعتبر معلما من معالم الشخصية الأدبية [2] ولكل أديب أسلوبه الخاص الذي يميزه عن غيره.

فمن مميزات الأسلوب عند مفدي هي:

الأصالة:

إن مفدي زكريا يعتز بأصالة شعره باستقائه من هذه الروافد التراثية التي تمثل الوجه النفي للحضارة العربية الإسلامية، من أبرزها تدفقا القرآن الكريم لأنه يكتب شعره عن وحي منزل يفجر وعيه وحسه ووجدانه [3]، لقد تشبع مفدي زكريا بالتراث العربي النقي، خاليا من الثقافة الأجنبية وألفاظه بعيدة عن العامية.

كما يقول كامل الشاوي: "أن أسلوبه مفدي مثل ثورته ومثل إرادته عربي صميم " [4] مثل ذلك في قوله:

كم أندس بين المثقف حركي فأبدل فيه اليقين بشك

فكلمة حركي: "هي كلمة عامية شاعت بين الأوساط الجزائرية، أطلقت على العميل الذي اصطنعته فرنسا لضرب الثورة من الخلف بيد المرتزقة من أبناء البلاد وقد كثر هذا النوع بعد الاستقلال[5].

[1] - حواس بري، المرجع السابق، ص288.

[2] - المرجع نفسه، ص323.

[3] - محمد ناصر، المرجع السابق، ص180.

[4] - يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدى زكرياء-دراسة فنية تحليلية- دار البعث، الجزائر،1987، ص 379.

[5] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص100.

كما قال أيضا:

وتختال بالميني جوب دلالا وتستعرض المغريات الخفية[1].

فكلمة الميني: هي كلمة أجنبية تطلق على الباس القصير للمرأة، وقد دخلت في اللغة بفعل التأثير الاستعماري وهذه الظاهرة قليلة جدا في الإلياذة، بحيث لا يمكن أن تطعن ما ذهبنا إليه من عربية أسلوبه، لأنها مجرد يضعها الشاعر في الهامش مشيرا إلى أصلها الأجنبي مع استعمالها الدارج.

مثل قوله:

وإن زل يوما، تناديه بيكو فأحسب بيكو من البكويه [2]

فقد همش مفدى زكرياء في إلياذة الجزائر على أن "بيكو" لفظة تستعمل في شتم المسلمين واحتقارهم وخاصة أهل شمال إفريقيا، أما البكوية فهي لفظة تشريف في مصر و صاحبها يسمى"بك"و تنطق اللفظة "بيه" [3]

المباشرة وطابع الحماسة:

هما سمتان بارزتان في القصيدة الجزائرية خاصة أثناء فترة الثورة،لأنها في حاجة إلى صوت يحمس لها أكثر من حاجتها إلى نغمة تتغنى بها، وربما هذا ما وجده الشعراء ينسجم مع جو المعارك، ما يبرز تسامحهم في الاحتكام إلى النظرة الفنية المجددة في بناء القصيدة .[4]

ولكن هذا ما رأيناه شائع في أسلوبه الذي يثير تفاعل الجماهير مع مضامينها المتنوعة و إن استعماله لمثل هذه الأساليب ذات الطابع المباشر الخالي من التصوير لأن الظرف يتطلب ذلك فالفترة ثورة لا داعي للتصوير و الخيال في ذلك الوقت.

ولكن هذا ما رأيناه شائع في أسلوبه الذي يثير تفاعل الجماهير مع مضامينها المتنوعة و إن استعماله لمثل هذه الأساليب ذات الطابع المباشر الخالي من التصوير لأن الظرف يتطلب ذلك فالفترة فترة ثورة لا داعي للتصوير و الخيال في ذلك الوقت.

أتى أمرنا صارخا فانطلقنا ولذنا بوحدتنا، فانعتقنا

وفاوضنا القوم في أمرنا وأمر سيادتنا.... فرفضنا

وقالوا: سنجري عليها اقتراعا بلا، ونعم، خدعة، فاعترضنا

فرنسا، تناسيت ما ليس ينسى أما في نوفمبر...كنا اقترعنا

وأجرى علينا الرصاص انتخابا وخضب أوراقنا .... فانتخبنا؟؟

وقلنا .... و قالت لنا الكائنا ت،خذوا حذركم و اثبتوا... فثبتنا [5]

---

[1] - المصدر نفسه، ص102.

[2] - المصدر السابق، ص98.

[3] - المصدر نفسه، ص104.

[4] - الوناس شعباني، تطور العر الجزائري منذ سنة1945-4980، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص188-189.

[5] - مفدي زكريا إلياذة الجزائر، ص82.

لأن المباشرة والحماسة من أبرز الخصائص التي عرف بها شعره، بقدر ما تليق به لغة تملأ الأشداق وتقرع الآذان.

القوة و الجزالة: نقصد بها قوة الكلام أي قوة التراكيب و إحكام بناء الجملة،فعند مفدى نجد كلامه محكما متماسكا و في الجملة تناسق و انسجام بين الألفاظ، وهذا ما يزيد من أسلوبه دلالة و جمالا و معنى ووضوحا و دقة في قوله:

أمانا، من الخطر الداهم ومن معول قاصف هادم
غزا المذهبيون عقل الشبا ب، بمستورد آفن آثم
وزاغوا بهم، دون إسلامهم إلى مذهب ليس بالسالم
ودسوا شيوعية كالوباء يصرف السم للطاعم
وقالوا التقدم شرع الحيا ة، وكم ركض الحلم بالنائم؟ [1]

استحضاره لشخصيات الأنبياء:

فمن مميزات أسلوبه استحضاره لشخصيات الأنبياء بكثرة بسبب ارتباطها بالسياق العام للتاريخ العربي الإسلامي، ليستمد منها مشاهد إيمانية في تنوعها و تداخلها بما تحتله من مكانه و قداسة، على قراءة معنى جديد يتناسب مع روح الحدث التاريخي الذي استنفر كوامنه الشعرية و متناسيا في الوقت نفسه بهذا الحدث الجديد إلى مراتب و مصاف الحدث القديم و هذا كله ما دفع المتلقى المخاطب و الشاعر بهذا استطاع إيصال رسالته كاملة بطريقة رائعة ومؤثرة، و من أبرز الشخصيات الدينية، التي ذكرها في الإلياذة منها شخصية النبي عيسى و محمد قوله:

وما كان عيسى ظلوما جهولا وكان محمد، يرعى النصارى[2]

أما آدم وحواء فذكرهما في قوله:

وحذر آدم ظلم أخيه وسوى الحظوظ، وأعلى الرؤوسا
وأخرج حواء من رمسها فألهمت الروح هذي الرموسا [3]

وهاروت الملك في قوله:

وبابل السحر من وحيها تلقب هاروت بالساحر [4]

وشخصية ثمود وعاد ونوح في قوله:

وأوقفت ركب الزمان طويلا أسأله: عن ثمود...وعاد...
وعن قصة المجد..من عهد نوح و هل ارم ...هي ذات العماد [5]؟

[1] - المصدر السابق، ص96.
[2] - المصدر نفسه، ص 80.
[3] - المصدر نفسه، ص42.
[4] - المصدر نفسه، ص20.

وعن شخصية النبي موسى التي إليه من خلال عصاه التي ألقاها فتلقفت سحر السحرة فيقول:

وألقيت في الساحرين عصا ي، تلقف ما يأفكون، بسحري. [1]

وعن شخصية مريم وعيسى ذكرهما في قوله:

وتغضب عيسى المسيح وتبكي على جذع نخلتها مريما [2]

حيث ذكرها الله تعالى للعبرة والاقتداء بها، لأنها تثير العاطفة بمواقفها الإنسانية وتغذي النفس الإنسانية بمثلها الأخلاقية.

5- توظيف المصطلحات الإسلامية: وظف مفدى زكرياء لغة ذات دلالة معجمية دقيقة مستوحات من التراث الإسلامي، و ترتبط ألفاظه بإيحاءات نفسية ووجدانية عديدة منها:كلمة الجهاد في قوله:

وآمن أشبالنا بالجهاد فعافوا الخنوع،و خاضوا الغمارا [3]

كلمة القصاص وما تحمله من دلالات إسلامية:

ودان القصاص فرنسا العجوز بما اجترحت من خداع ومكر [4]

كلمة التوحيد: وهذا مؤدى ما يتغنى به شاعرنا:

وتمت بها كلمات الإله التي وقعت باسمها الواقعة[5]

الصور الفنية:

تعد الصور الفنية إحدى الدعائم الأساسية التي يعرف بها الشعر بعد الإيقاع، ولأهميتها في العمل الشعري جعلها النقاد والدارسون محط عنايتهم سواء ذلك عند القدماء أو المحدثون، [6]

"وهذا ما أدى إلى اهتمام النقاد بدراسة الصورة الفنية يكاد يطغى على اهتمامتهم الأخرى كاللغة والموسيقى، ولعل ذلك يعود إلى أهميتها البالغة في القصيدة، يقول كولدرج: الشعر من غير المجاز يصبح كتلة جامدة ذلك لأن الصورة المجازية جزء ضروري من الطاقة التي تمد الشعر بالحياة[7].

ولا حاجة لنا الى استعراض كل ما قيل في الصور الفنية لأن معظم التعريفات والدراسات تقترب من مفهوم الأمريكي "إزراباوند". حيث قال: "أنها تلك التي تقدم تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن"[8].

---

[5] - المصدر نفسه، ص37.

[1] - المصدر نفسه، ص 115.

[2] - المصدر نفسه، ص105.

[3] - المصدر نفسه، ص80.

[4] - المصدر نفسه، ص69.

[5] - المصدر نفسه، ص83.

[6] - حواس بري، المرجع السابق، ص300.

[7] - عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1962-1945)، منشورات جامعة باتنة، ا لجزائر، ص237.

[8] - عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، مكتب غريب، دار غريب للطباعة، ط4، القاهرة،1997، ص63.

و بذلك فالصور الفنية الناجحة هي التي يسعى الشاعر لأن تكون فيها دمه و نبضه و بصماته، وبذلك تكون كشفا نفسيا جديدا و ليس مزيدا للمعرفة المعروف.[1]

اتكأ مفدي زكريا على التصوير البياني الذي يثير الإحساس ويدغدغ الوجدان ويستقطب الأذهان ومن صور التشبيه البليغ حيث يقول الشاعر:

سل الأطلس الفرد عن جرجرا تعالى يشد السما بالثرى
فيختال كبرا تنافسه ثقجدا فلا يرجع القهقرى
تلون وجه السماء به فأصبح أزرقها أخضر
وتجثوا الثلوج على قدميه خشوعا فتسخر منها الذرى
هو الأطلس الأزلي الذي قضى العمر يصنع أسد الشرى [2]

حيث شبه الأطلس بإنسان يخاطبه ويسأله إذا حذف المشبه به، وترك لازم يدل عليه وهو "سل"، كما نلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات يتحدث عن عيد الأطلس الذي يصل السماء بالأرض حيث شبه لونها الأزرق أخضر بخضرة الغابة والأزهار والنبات، دلالة على تكامل خلق الله، أن لا عوج فيها كما أن مفدي زكريا جعل الحياة تجري في الجوامد الصماء وشديد الولوع بالزخرفة والتشكيل ووصف الأشياء من الخارج دون محاولة التعاطف معها.

كما ينقل لنا الشاعر صورة بيانية حزينة يوظفها في شعره، تتعلق بمشاهد من الثورة الجزائر المجيدة التي راح ضحيتها مليون ونصف مليون شهيد في قوله:

سبحنا على لجج من دمانا وللنصر رحنا نسوق السفينا
وثرنا نفجر نارا ونورا ونصنع من صلبنا الثائرينا
ونلهم ثورتنا مبتغانا فتلهم ثورتنا العالمينا
وتسخر جبهتنا بالبلايا فنسخر بالظلم والظالمينا [3]

فإذا اعتاد الناس السباحة على الشواطئ فإن الشعب الجزائري تعلم كيف يسبح على دمه، فإذا كان التبرع بالأموال، فإن الشعب الجزائري تبرع بالأرواح حيث نقلت الصورة الفنية هنا موقفا عظيما من الأحداث الجسام التي يخيل فيها التاريخ يتوقف لحظتها إجلالا وروعة حيث جمعت بين متناقضين السباحة و الدم، وهذا ما يؤكد مدى قدره الشاعر التعبيرية على مدى اتساع خياله و حسه المرهف وتنفيسا لمكبوتات المستبعدين إذا عمد الشاعر في مثل هذه الحالات على تأكيد صوت الماضي في العمل الشعري.

[1] - إيليا الحلاوي، فن الوصف، منشورات دار الشرق الجديد، د.ط، د.ت، ص100.
[2]- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص24.
[3] - المصدر نفسه، ص70.

واعتمد كثيرا غلى الصور القرآنية ذات البيان الفصيح المقنع منها:

التكرار حيث يقول الشاعر:

ولم ترضى بالفحل من قومها فهامت بمن .... ما رمى إذ رمى[1]

ما رمى إذ رمى واردة في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) [2]، ككناية عن الكفار، وقد وظفنا الشاعر للتعبير عن الرجل الجزائري المسلم بالفرنسي الذي يخالف دينها وأخلاقها ومبادئها وهامت به ربما من باب التحرر والتحضر بدورها أو لغرض آخر[3].

ومن أبرز الصور التي استلهم منها مفدي زكريا القرآن الكريم في قوله تعالى: (وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) [4] التي تعبر عن غربته وحنينه إلى بيئته الأصيلة "الصحراء" وطبيعتها الفريدة المملوءة بالذكريات ومرتع الصبا ومساكن الأهل و الأحبة متغنيا بفضائها الرحب و جمالها الخلاب حيث يقول الشاعر:

ألا...ما لهذا الحساب ...ومالي؟ وصحراؤنا.... نبع هذا الجمال

هنا مهبط الوحي للكائنات حيال النخيل .... وبين الرمال.

ومهد الرسالات للعالمين ونور الهدى، ومصب الكمال

هنا العبقريات والمعجزا ت، وصرح الشموخ وعرش الجلال

تبادلنا الشمس إشعاعها و يلهمنا الصفو،نور الهلال

ونعدو فنسبق أحلامنا ونهز أمن وثبات الغزال

و جنبنا الغدر ...ماء الغدير و حذرنا،الظل نهج الظلال

وعودنا الصديق ...راعي المواشي وعلمنا الصبر ...صبر الجمال

توفر للشعب أقداره وتكفي الجزائر ...ذل السؤال؟ [5]

لأن الصورة في الآية الكريمة توحي بالأمن والاطمئنان للوطن.

و نجد الصورة الفنية عنده تمتاز بالتكرار و الوضوح،فهي في عمومها تكاد تكون مطابقة للأحداث و مواكبة للاضطرابات النفسية، كما أن للعاطفة دور أساسي في خصوصيات و مميزات هذه الصورة لإثراء مضامينها .

[1] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص105.

[2] - سورة الأنفال، الآية 17.

[3] - نسيمة زمالي، قراءة في إلياذة الجزائر، دار الهدى، الجزائر، 2012، ص41.

[4] - سورة مريم، الآية 25.

[5]- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص 36.

الموسيقى الشعرية:

بمرور الزمن وتقادم الأحوال والأحداث أصبحت الموسيقى الشعرية عنصرا إلزاميا هاما من عناصره الأساسية، وأداة من أعظم الأدوات التي ينشئ على دعائمها الشاعر هندسة بناء قصائده، ثم هي من ناحية أخرى تمثل المعيار الحقيقي من المعايير التي تميز الشعر عن النثر وإن لم تكن هي المعيار الوحيد بينهما[1].

بمجرد ذكر الطابع الملحمي نتوقع منطقيا وجود نمط موسيقي معبر، ومن خلال هذا تعتبر الموسيقى عنصر من العناصر المهمة في الشعر التي تبعث على الراحة وإزالة الملل والرتابة في حياة الإنسان، وهي في الحقيقة مجموعة من الأصوات التي يتألف من ضرباتها الموقعة نغم يلمس المشاعر ومن إيقاعها لحن يهز أوتار القلوب [2]

لأنها ليست زخرف تضاف إليه، بل هي وسيلة من أبرز وسائل الإيحاء وأقدرها على التعبير عن كل ما هو عميق وخفي في عالم النفس و في أغوارها، مما لا يكون في وسع و مقدرة الكلام على التعبير و الإفصاح لذا فهي من أقوى وسائل الإيحاء تأثير و سلطانا على النفس وأعماقها و تأثيرا فيها، بل هي من بنية الشعر لدى أية أمة من الأمم. [3]

كما يرى الدكتور إبراهيم أنيس: أن للشعر نواحي عدة للجمال لكن أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ وانسجام في التوالي المقاطع، وتردد بعضها بقدر معين، وكل هذا ما نسميه بموسيقى الشعر[4].

فالموسيقى إذ ليست هي محور الشعر فحسب، وإنما يشرط إلى جانبها الانفعال وصدق التجربة [5]، لأن التشكيل الموسيقي في الإلياذة يقوم على نوعين متباينين هما: الموسيقى الخارجية والداخلية.

أ –الموسيقى الخارجية: "هي التي تعكس شخصية الشاعر في التجديد أو التقليد ما سار عليه غيره من الشعراء القدماء" [6].

كما تحتوي إلياذة الجزائر على ألف بيت وبيت 1001، خلد تاريخ الجزائر وبطولات رجالها، وما زاد من روعة الموسيقى تلك اللازمة التي انتقاها لفظا ووزنا ومعنى وما أبدته من صدق الانتماء والروح الجماعة وعقد العزم على تحقيق الأمنيات تلك اللازمة التي تذكر في ختام كل جزء، أي في كل عشرة أبيات لبدل تكرارها على الإصرار والعزم على المواصلة.

---

[1] - علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، دار الفصحى، القاهرة،1978، ص162.

[2]- حواس بري، المرجع السابق، ص275.

[3]- عبد الحميد حسين، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1964، ص23

[4]- ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط3، 1965، ص226.

[5]- حواس بري، المرجع السابق، ص276.

[6]-المرجع نفسه، ص288.

كما يمكن أن نقول :(بأن هذه اللازمة سوى وصلة تريح القارئ أو المنشد وتهيئه للانتقال إلى النشيد اللاحق، أو هي الخيط الرابط الذي يشد مجموع المقاطع إلى بعضها وإذا اجتهد بعضهم فلا يضيف على ما سبق سوى أن اللازمة في الملحمة بمقام الأنشودة في المسرح الشعري تتكرر لتوكيد المعنى السابق و لترك الجو العام على كل أجزاء النص، وهي تشبه ما كان القدماء يطلقون عليه "اسم الراوي"[1].

وهي كالتالي:

شغلنا الورى، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

التي أسسها الشاعر منذ البداية على مفهوم التعالي والتقديس والطهر و الروحانية الطاغية، و مهما أسندت اللازمة المتكررة من وظائف شكلية، في الجانب الإيقاعي أو في تحقيق الانسجام و ربط أجزاء النص و غيرها، فإن ذلك لا يبرر أن يهمل القارئ الأبعاد الملحمية التي حرس الشاعر على تأكيدها في اللازمة. [2]

واعتمد الشاعر في نظمها على بحر المتقارب، إذ يشكل حوالي ثمانية وتسعين بالمائة من مجموعها، لأنه بحر صاف يكثر فيه التسكين الذي يساعد على حدة التعبير، أما تفعيلاته الثمانية، فتساعد على تنوع المعاني وكثرتها. [3]

و قد عرف بحر المتقارب منذ القديم بخفة وقعه،إذ يلائم الحركة الدورانية السريعة و ذلك لمرونته و مناسبته لجميع الأغراض الحماسية و الوصفية السريعة وذلك من خلال تفعيلاته التي تحدث وقعا تناغميا رائعا:

فعولن، فعولن، فعولن، فعولن فعولن، فعولن، فعولن، فعولن.

كما استخدم بحرين آخرين هما الكامل والبسيط.

و قد خضعت الإلياذة إلى أوزان الخليل في القصيدة العمودية دون الحيد عنها، فقد التزم القافية و الروي، و قد نوع فيها حسب الحاجة لذلك كما أنه اعتمد الردف أحيانا و أهمله أحيانا أخرى،دون السقوط في عيب من عيوب القافية، فلا إبطاء و لا تضمين و لا إقواء بل يحترم هذه القوانين و يسير على سنن الخليل كما هي مسطرة.[4]

وأكثر نسبة ورودا لحرف القافية هو: حرف (الدال)، و (النون)، و(الميمم)، ينسبة واحدة تقريبا، كما نالت قافية (الهاء) اهتمام مفدي زكريا خلافا لغيره من الشعراء من الناحية الصوتية، لأنها تتناسب مع مضامين الأنين والجروح فهو يحمل حالة الاضطراب النفسي الحاد والتأثير البليغ على السامع في قوله:

[1] - دفاتر المخبر الشعرية الجزائرية، دراسات في الشعرية الجزائرية، جامعة المسيلة، العدد الأول، مارس 2009، ص99.

[2] - المرجع السابق، ص98.

[3] - بليحيا الطاهر، الرواية العربية الجديدة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 1970، ص54.

[4] - نسيمة زمالي، المرجع السابق، ص18.

وتذكر ثورتنا العارمة بطولات، سيدتي فاطمة

يفجر بركانه جرجرا فترجف باريس والعاصمة [1]

أما حرف الروي فيه الثبات حيث أن الشاعر اعتمد على حرف الروي بمعنى أن كل مشهد كان يخضع لحرف مغاير وقد يعود من جديد بعد فترة مخالفة لوقعة الأول.

ب- الموسيقى الداخلية: هي التي تعكس شخصية الشاعر داخل العمل الفني في سر تفوقه أو إخفاقه في تعامله مع اللغة داخل الإطار الخارجي.

فهي هذا الانسجام الصوتي الداخلي الذي ينبع من هذا التوافق الموسيقي بين الكلمات ودلالاتها حينا أو بين الكلمات وبعضها بعض حينا آخر، أو قل هذا الانسجام الصوتي الذي يحققه الأسلوب الشعري من خلال النظم و جودة الرصف علي نحو ما يعبر أبو هلال العسكري عبد القاهر الجرجاني[2].

لقد اهتزت نفسية الشاعر مفدي زكريا في الكثير من المواقف لا سيما الحوادث التي شهدتها الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي ومن أبرزها حوادث الثامن ماي 1945 فهي تعتبر من أضحم المجازر التي ارتكبها الغزاة عبر حياة البشر وما خلفته من نتائج وخيمة على المجتمع الجزائري من دمار وخراب وجرح وقتل وتشريد وتعذيب يتمثل ذلك في قوله:

فيا أربعين وخمسا أعيدي فضائح جند غبي بليد

وآثام أحلاس جيش عميل عديم الحيا كضمير اليهود

ويا ذكريات الدماء الغوالي أفيضى جلالك ملء نشيدي

ويا لعنات السماء انزلي صواعق فوق الظلوم الحقود

ويا زهرة زرعتها دمانا وفتحنا بالصباح الجديد

ألا صمخي مهجات الضحايا بخراطة المجد ربض الأسود

تنافخك عموشة الخالد ين،عبيرا فيخجل عطر الورود

وهزي بعزتنا في بنى عزيز المغاوير صدر الوجود

وتيهي بمن شيدوا للبقا ومن كتبوا صفحات الخلود

ومن قرروا للبلاد المصير بنور الحجى، وبنار الوقود[3]

نلاحظ في الأبيات انعكاس نفسية الشاعر في موسيقاه الداخلية إذ حفلت الأبيات بحرف الدال كروي ونبرته الشعرية كما نعرف لا تألف الهمس أو ايقاع الصمت بل خاصيته هي الصخب المتعالي و الصوت الحاد كما كشف عن نفسية الشاعر المتأسية و قد تجلى ذلك في كلمات: {بليد، اليهود، نشيدي، الحقود، الجديد،

[1] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص57.

[2] - حواس بري، المرجع السابق، ص288.

[3] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر. ص 67.

الأسود، الورود، الوجود، الخلود، الوقود}و لقد أكد لنا ذلك الجو النفسي لبعض الألفاظ الأخرى مثل: (فضائح، الحيا، الدماء ،صواعق ، الظلوم، الضحايا)، التي توحي بالعنف والقتل والتشرد.

ولقد وفق الشاعر في اختيار الكلمات التي توفر الانسجام الصوتي الذي ندركه من خلال ألفاظه غليظة شديدة النبرة قوية الاحساس لا يتخللها رقيق الكلام ولا عذبة بالمجزرة الرهيبة والدليل على ذلك العلاقة القائمة بين المعنى والموسيقى.

من خلال دراستنا الفنية عبر إلياذة الجزائر نصل إلى أن لغته ذات النبرة الحادة، المصاحبة لزخم من الإيحاءات الدالة، ولغة القرآن الكريم خاصة بالإضافة إلى أن أسلوبه واضحا و دقيقا و جزلا، يميل إلى التدقيق و رسم الجزئيات ، فأبكتنا نغمته الرصاصية، وأخرستنا قوة بيانة، أحسسنا من داخلنا أننا نناوش جبلا عظيما لا بداية له ولا نهاية، فهو شاعر متميز بأصالته العريقة، كما إذا استطاع الجمع بين الموسيقى الداخلية و الخارجية لأنها تساعدنا على معرفة مدى صدق الشاعر في عواطفه، ومدى معايشته لتجارب التي يعبر عنها، وهكذا تتجلى فاعلية الشاعر الإبداعية و طاقته الفنية مع النصوص التراثية التي جسدها من روحه و نفسه، ارتبطت أكثر بالروافد الدينية و العقائدية.

المراجع:

-القرآن الكريم برواية ورش.

إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط3، 1965.

الوناس شعباني، تطور العر الجزائري منذ سنة1945-4980، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت.

-إيليا الحلاوي، فن الوصف، منشورات دار الشرق الجديد، د.ط، د.ت.

- بليحيا الطاهر، الرواية العربية الجديدة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 1970.

- دفاتر المخبر الشعرية الجزائرية، دراسات في الشعرية الجزائرية، جامعة المسيلة، العدد الأول، مارس 2009.

- حواس بري، المقاييس البلاغية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002.

-عبد الحميد حسين، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1964.

-عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، مكتب غريب، دار غريب للطباعة، ط4، القاهرة،1997.

-علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، دار الفصحى، القاهرة،1978.

-عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1962-1945)، منشورات جامعة باتنة، ا لجزائر.

- محمد ناصر، مفدى زكريا شاعر النضال والثورة، جمعية التراث، العطف، غرداية، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط02، 1969.

-مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.

- نسيمة زمالي، قراءة في إلياذة الجزائر، دار الهدى، الجزائر، 2012.

-يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدى زكرياء-دراسة فنية تحليلية- دار البعث، الجزائر،1987،